يظن الغمر ان الكتب تهدي اخا جهل لادراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم

هذا وأما الابيات التي قال انها معروفة من قصيدة لابن أبي ربيعة الذي ما أظن أنه يصح اسمه ولقبه فليحذفها منها فقد قرأناها على علماء اللغة والرواية في الغرب والشرق بكتاب العقد الفريد لشهاب الدين أحمد بن عبد ربه الاندلسي القرطبي الاندلسي فنسبها لعبد الله بن المبارك فيا ايها الكاتب المتواري ان القديم اكثر حسنات من الحديث وعلمه أصح من علمه واول هذه الامة افضل من آخرها فخذ من الحديث الحسن وذر القبيح ومنه هذه التوقيعات المستعارة بدعوى التواضع وصاحب الدعوة والارشاد لا يختفي فان كنت من اهل العلم فعرف بنفسك ليعرف قدرك ويعتمد ما تكتب والا فلا يمنعنك الحياء ان تتعلم فان الحياء في هذا الباب مذموم ولا تخل الحجاب كثيفاً فاننا الآن نكاد نعرفك فاتق الله في نفسك والا كشفنا عن لبسك وقد رددنا عليك اولا بالعلم وقلنا لك قولا ليناً لعلك تتذكر او تخشى فتعود على نفس سولت لك وامرتك بسوء فتؤنبها فأبيت وها نحن ننتظر ما تكتبه على رثاء شوقي من زيغ وتحريف وهنالك نرجو من الله ان لا يعذبك بعذابه كما نرجو ان يرحمنا وسائر المسلمين برحمته . محمد البيضاوي الشنجيطي

شخصية مغربية فذة مجهولة في الوسط المغربي

الحسن بن محمد الوزان
Léon l'Africain

«تابع» ٣) مؤلفاته

١) كتاب في وصف افريقيا — يظهر أن مؤلفات الحسن صاحبنا عديدة ومن سوء الحظ لم نتصل الا بكتاب او كتابين منها والآخر لا نعرف إلا اسمه بل ربما ألف مؤلفات قبل أسره أو بعده لا نعرف حتى اسماءها ومع ذلك فكتابه الذي بين أيدينا يرينا ـ كما ذكرت سابقاً ـ صورة صحيحة عن الرجل وبحثه ، هذا الكتاب يسميه « وصف افريقيا » وليس معنى الوصف هنا ذلك الوصف الادبي الذي يطرق غالباً في الرحلات بل معناه الوصف العلمي والدقة العلمية في سائر صفحاته فلقد تناول كثيراً من المسائل فأجاد في البحث والتحليل وخلد مؤلفاً له قيمته الكبرى في عالم الجغرافيا والتاريخ مدى الاجيال وكان المصدر الوحيد عنا في ديار الغرب قبل أن نتصل بالغرب.

والغموض الذي يشمل حياة صاحبنا يشمل حتى مؤلفاته بل حتى كتابه هذا الذي بين أيدينا والذي ترجم الى أهم اللغات الاروبية وله المكانة السامية بين مؤلفات المكتبة الغربية فاننا لا نعرف بأية لغة كتب ولا أي المصادر اعتمد عليها عند تأليفه ولا الداعي له على تأليفه ولا المدة التي استغرقها في تأليفه الى غير ذلك من الاسئلة التي تنير لنا السبيل وتزيل شيئاً من الابهام وغاية ما نعلم أن هذا الكتاب صدرت طبعته باللغة الايطالية في سنة ١٥٥٠ في مجموعة للايطالي Ramusio خاصة بالاسفار البرية والبحرية وترجم الكتاب بعد ذلك الى اللغة اللاتينية ـ وهي لغة العلم

والادب في القرون الوسطى - ثم ترجم الكتاب الى اللغة الافرنسية وبعد ذلك ترجم الى كثير من اللغات الاوربية أما أصله العربي - إن كان له أصل عربي - فقد ضاع ولم يعرف منه شيء وغاية ما يمكننا أن نستنتج في هذه المسألة - تأييداً لفكرة ذهب اليها المستشرق الشهير مسنون - هي أن الحسن جمع خلال أسفاره العديدة مذكرات كتبها باسانه العربي ثم وضعها في صفة كتاب مضيفاً اليها المعلومات التي حفظت له ذاكرته التي لا ريب أنها كانت ممتازة في الادراك والحفظ فعند تأليفه لهذا الكتاب أو غيره في ايطاليا لم يكن له من المصادر العربية شيء بل اعتمد على مشاهداته وتجاريب اسفاره فكان لكتابه قيمة ممتازة حيث لم يكن كتابه محشواً بنقول من مؤلفات هي لدينا الآن أو عبارة عن نظريات سبقه اليها غيره أما الداعي له على تأليف هذا الكتاب فلعله هو البابا ليون العاشر نظراً للصلة التي كانت متينة والمودة العظيمة بينهما فمن المحتمل ان شغف هذا البابا بالعلم دعاه أن يطلب من رفيقه المغربي أن يحدثه عن أحوال بلاده ومشاهداته فأفاض صاحبنا في الحديث والوصف إفاضة دعت البابا أن يطلب منه تأليف كتاب يضم هذه المعلومات ليحتفظ بها في خزانته العظيمة فلبى الطلب وألف هذا الكتاب على أن ليون المغربي لا يتحدث الينا بشيء من هذا مطلقاً وانما هو ظن وتخمين لا أكثر ولا أقل .

قسم ليون المغربي كتابه الى تسعة أقسام الاول في معلومات عامة عن جغرافية افريقيا ومن عناوين هذا القسم مثلا : أصل كلمة افريقيا ، حدود افريقيا ، أقسام افريقيا ، سكان افريقيا وتعريف اسم افريقيا ، أصل الافريقيين ، العرب الساكنون في مدن افريقيا ، وهكذا تابع بحثه بغاية الدقة والتحليل وفي الاقسام السبعة تكلم عن كل ناحية من نواحي البلاد بتفصيل وشرح تامين مبتدئاً بالمدن التي في تلك الناحية ثم بالجبال وفي القسم التاسع تكلم عن المحصولات الارضية وعن الانهار والبحار .

ومن العجيب أنه أول من قسم بلاد المغرب على أقسام : الاول البلاد البربرية أي البلاد الواقعة على شمال سلسلة جبال الاطلس وهي مغربنا والجزائر وتونس ، والثاني بلاد النخيل أو الجريد الواقعة على جنوب الاطلس ، والثالث وهي ليبيا وهي الصحراء ، والرابع بلاد السودان (أي بلاد كناوة) المغربي ، وهذا التقسيم لا زال يستعمل الى اليوم في جغرافية القطر عموماً وهو الذي استنبطه مما يدل على سعة علمه ودراسته العلمية فالانسان عند ما يتابع ما في الكتاب يخيل اليه أنه الف في هذا العصر إذ يرى فيه معلومات يظنها من مستنتجات فكر ابناء القرن العشرين .

فهو اذا ذكر مثلا جسراً نصبه يعقوب المنصور لم يغفل أن يعدد لنا عدد اقواسه ومقاييسها واذا تحدث عن جهة لم يغفل ما فيها من معادن وتربة وكذلك عن عمر الانسان في المغرب فيذكر أنه يتراوح بين ٦٥ و ٧٠ وفي الاطلس حيث الهواء النقي بين ٨٠ و ١٠٠ سنة وهذا يؤيده الاحصاء الحديث تأييداً تاماً ، ويجره الكلام عن الهواء الى الامراض التي يصاب بها المغاربة فيعددها ويذكر أسبابها ومصادرها .

ثم يتطرق الى الحياة الاجتماعيه فيدرك ما للهواء من التأثير في الاخلاق التي يصفها بمنتهى الصراحة حيث يزعم أن الشعب البربري ماهر في التجارة متطير لا يثبت على حال متمسك بالدين كثير الجدال ثم يخصص صفحات عن الملابس التي كانت سائدة في عصره وتغييراتها حسب مختلف الاوقات والمناسبات ثم يفصل الاطعمة التي يتناولها ابناء وطنه وهكذا كان دقيقاً في الناحية الاجتماعية كما كان في غيرها .

وللناحية الادارية ايضاً حظ في كتابه اذا تحدّث عن تقاسيم المغرب السياسية وعن الجهات التي كان بنو الوطاس يسيطرون عليها وعن المدن المستقلة في اداراتها والقبائل التي لم تكن تعترف بادارة وملك الوطاسيين نظراً لضعفهم واضطراب احوالهم ثم عدد المحاكم في كل ناحية .

وكذلك أفاض إفاضة عجيبة في الطرق التي بالمغرب وأعطى عنها تفصيلاً دقيقاً اذ عدد كل مركز أو مدينة وما يتفرّع عنه من طرق .

والخلاصة أن ليون المغربي لم يترك ناحية الا تحدث عنها بإسهاب ودقة غريبين دلا على مقدار ملاحظته وسعة نظره ولعلنا اذا استرسلنا نعدد ونوضح ما يحتوي عليه الكتاب سوف يطول بنا الحديث ونخرج من حدود الكتابة عن المؤلف الى استغراق تفاصيله فالذي ذكرت قد يعطي صورة عن مجهود الرجل ويستطيع المرء أن يقيس عنه صوراً عدة مما في الكتاب من ابحاث هي جديرة بالظهور والبروز في وسطنا فليطلع ابناء الجيل الحاضر على ما خطه عالم من علمائهم في عصر من عصورهم المجيدة .

قد ذكرت آنفاً أن مؤلف الحسن هذا كان المصدر الوحيد عنا في ديار الغرب وقد ذكر المستشرق مسينون اشهر الاشخاص الذين كان مؤلف ليون مصدرهم في ابحاثهم عن بلاد افريقيا عموماً والمغرب خصوصاً فاذا هم يزيدون عن الثلاثين كان أولهم في القرن السادس عشر وآخرهم في سنة ١٨٥٣ ولكي ندرك حقيقة أهمية هذا المؤلف في الغرب لنفتح أي كتاب عن المغرب الف في الغرب فاننا سنجد اسم صاحبنا في صدر قائمة المصادر التي اعتمد عليها صاحب الكتاب في بحثه .

٢) مؤلفاته الاخرى — فمن سوء حظ الثقافة والعلم اذاً أن لا نتصل الا بمؤلف واحد لهذا الرجل الواسع النظر ولا نعرف من مؤلفاته الاخرى الا أسماءها فلو اتيح لنا أن نجد تلك المؤلفات وبينهم يدرسها لاتصلنا اتصالا قوياً بحياة العصر المريني العلمية والفكرية فمن يدري فلعل في بعض المكاتب المغربية مخطوطات من هذا القبيل سيكون إبرازها بواسطه المطبعة حدثاً يغير اراءنا في الماضي ، فمن مؤلفات الحسن التي لم نعرف الا أسماءها قاموس عربي عبراني لاتيني توجد منه نسخة خطية بالاسكوريال في اسبانيا وكتاب في النحو وآخر في البلاغة وآخر بالاتينية في تراجم ثلاثين من أشهر رجال الاسلام .

بقي علينا أن نتساءل هل ألف الحسن شيئاً قبل اسره وبعد رجوعه الى تونس فالظاهر أن كل المؤلفات التي ذكرت آنفاً الفت وهو مقيم في ايطاليا فليس من المتصور أن عالماً ممتازاً كصاحبنا يقضي شطراً من عمره في وسطه حيث لغة آبائه وثقافتهم دون أن يؤلف ودون أن يشتغل بالعلم ودراسته ، فاذا كان هناك شيء فاننا لا نعرفه الآن بل اننا لانعرف شيئاً عن صاحبنا الا ومصدرنا الوحيد فيما نعرف هو أقوال المؤلفين الغربيين .

— كلمة ختامية —

لشخصية الحسن هذا مقام كبير في الدوائر العلمية الغربية وكثير من الابحاث والمقالات حررت فيه اذ يعتبر شخصاً له خدمة جلية للثقافة والبحث في عصر لم تكن فيه معلومات الانسان عن العالم الا معلومات سطحية اذن فمن العار أن تجهل مثل هذه الشخصية من وسطنا العربي وفيه تدرجت وتثقفت بينما له في الغرب دوي حيث يعتبر ممتازاً في معلوماته وطرق بحثه .

ولعل أقل الواجبات التي ينبغي لنا أن نتقدّم بها نحو رجلنا الممتاز أن نترجم كتابه الى اللغة التي هي أصله الاول فنعيد الى المكتبة المغربية العربية كتاباً من كتبها الضائعة

وتهيئ للقارئ العربي أن يطلع على كتاب يريه بأجلى الصور حياة المغرب منذ أربعة قرون وما كانت تضطرم به من عناصر النور والظلام وما كانت تموج به من حق وظلام فهل من شبابنا من يقوم بهذا الواجب ؟

سعيد حجي

التاريخ

من أهمّ الأمور التي حدت الانسان الى النهوض ودفعته في طريق الحضارة وجعلته يأتي بالمعجزات من تسخير قوى الطبيعة واختراع آلات عجيبة سهلت عليه مصاعب الحياة وخففت من متاعبه الجسمانية ، وان كانت زادت في شقائه النفساني ، من أهم هذه الامور - إن لم اقل أهمها - التاريخ ، ولا أعني بالتاريخ سرد الاسماء والالقاب والارقام وذكر سنة ولادة الملك فلان ومماته ، أو وصف رايات الآخر وعد عبيده وخدامه ، بل بعث عصر مضى ، تمر مناظره امام القارئ بين سطور الكتاب فيرى ما كان عليه اجداده من العزة والرفعة والجاه والمجد ويبصر عظمة ملكهم ودقة تنظيمهم ويعجب بعدلهم وحسن تدبيرهم فيتيقن ان الخلف لابد أن يرث الكثير من خصال السلف فيمتلئ ثقة بنفسه ، والثقة بالنفس هي في نظري اكبر سبب وأعظم عامل على ترقي الامم ووصول الدول الى أوج الفخار ، وما أخر بعض الشعوب الا فقدانها من بين افراده ، وفي الحقيقة لا فرق بين الزنجي الغليظ الشفتين المؤتزر بأوراق الاشجار وبين المتمدن ذي القبعة المرتفعة والعصا المذهبة ، الا أن الاول فقد الثقة بنفسه فسكن الى الخمول ورضي بحالته ، أما الثاني فآمن بأنه لم يخلق ليأكل ويشرب وينام فجد واجتهد حتى بلغ العلياء ، فاذا قدر للزنجي أن يستعيد يوماً ما بعض ايمانه بنفسه فأرجوك ان تتيقن ان حاله ستصير غير التي هو عليها الآن وبالعكس اذا دار الدهر دورته فضعف من ثقة ذلك المتمدن فهو لابد واقع في هوة التقهقر والتأخر ، أما القول بان عقلية شعب أحط من عقلية الآخر أو أن الطقس البارد يدعو الى العمل ومن ثم الى التقدم بخلاف الطقس الحار المحبط للهمم فتلك ادعاآت مغرضة يقصد بها محاربة كل اتجاه نحو المجد .

ومنذ قديم الزمن عرف القادة فائدة الثقة بالنفس ، فعملوا على تقويتها بين اعضاء الشعب وقد بحثوا عن وسائل تبلغهم الى مأربهم فلم يجدوا وسيلة أفضل من التاريخ الذي يؤثر في العقول تأثير السحر ، فنمقوه وأسعفوه بخيالهم ومروا على العصور التي كانوا منحطين فيها من دون ان يذكروا عنها ولا كلمة واحدة بل ذهب بعضهم الى أبعد من ذلك فخلق ملوكاً وممالك وحروباً ووقائع لم توجد ولم تر ضوء الشمس وأطلق لخياله العنان فرفع من شأن هؤلاء الاشخاص وهاته الوقائع ما شاء له فكره وطاوعه بنانه كل ذلك ليدخل في روع افراد امته انهم افضل من غيرهم وأنهم اجدر البشر بالتقدم والتمدن والاستيلاء .

وهاؤم الامة اليونانية لا أظن أحداً يجهل قصصها التي تتعلق بنشأتها : يجد فيها القارئ اموراً لا يقبلها العقل من أنهم شعب الله وإن ملوكهم أبناء الآلهة وأن جبل أولمپ في اثينا افضل بقعة على وجه البسيطة الى كثير من أمثال ذلك - ولقد يقف الانسان امام هاته الاشياء فاغر الفم تعجبا ، وقد يتساءل مستنكراً كيف سكت العلماء والمؤرخون اليونانيون على هاته الترهات ، أالتبست الحقيقة ؟ أم كانوا بلهاء الى درجة تصديق هذه الخرافات ؟ لا ، لم يكونوا كذلك ، وانما تعاموا عن هذه الامور